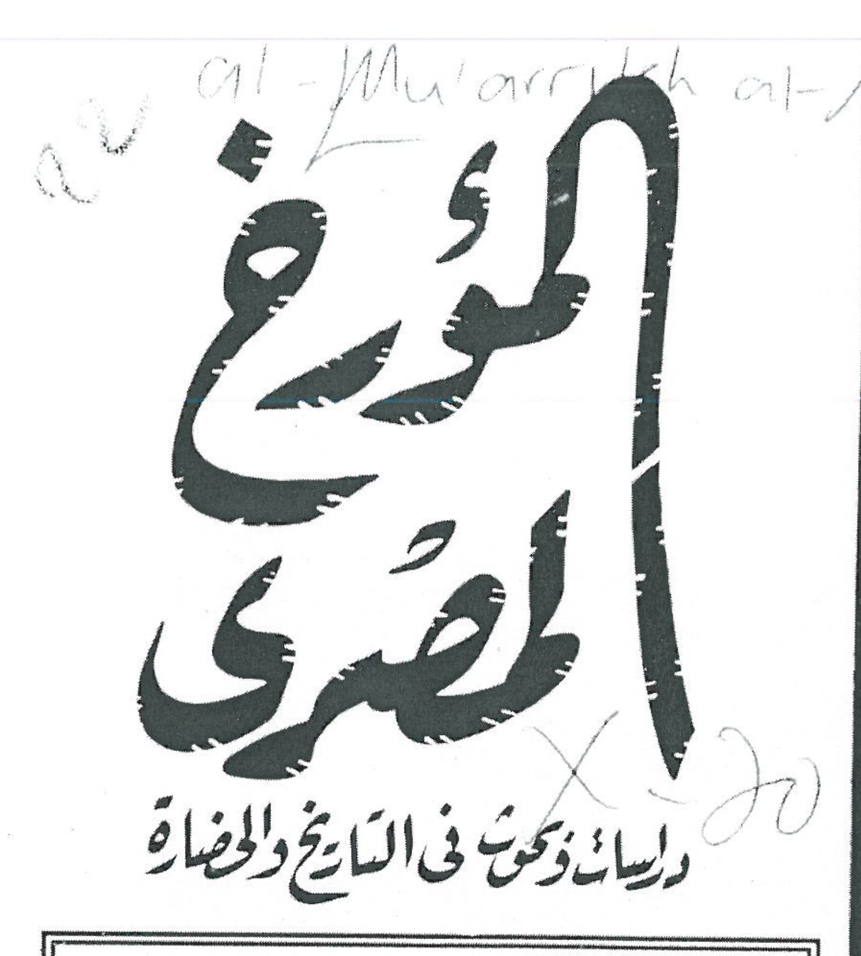
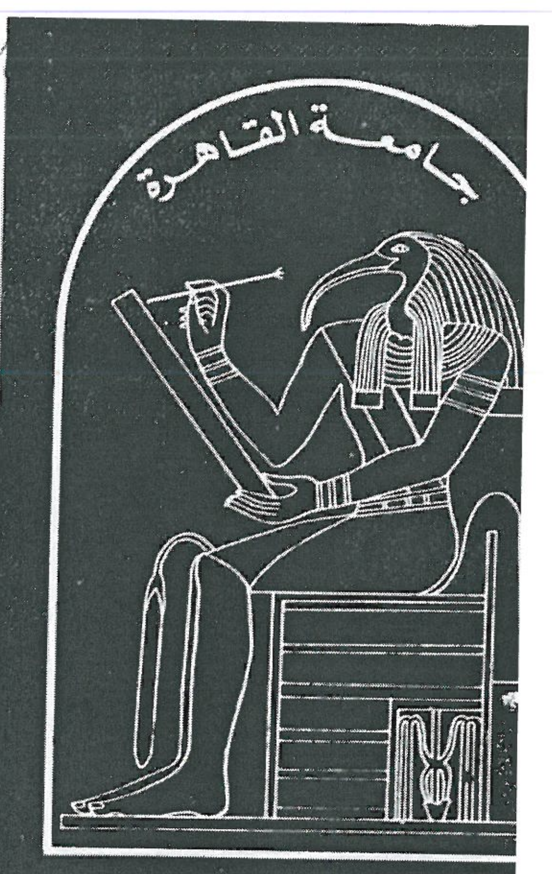






يصدرها قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة القاهرة
العدد العشرون يوليو ١٩٩٨

الأحوال العسكرية فى العراق والشام إبان الحرب العالمية الأولى فى ضوء وثائق لجنة الدفاع الأمبريالى

د. محمد حسن العيدروس
قسم التاريخ - كلية الآداب
جامعة الكويت

مقدمة :

تتناول هذه الدراسة الوضع فى العراق والشام أبان الحرب العالمية الأولى ، وذلك من خلال وثائق لجنة الدفاع الأمبريالى والتى تنشر لأول مرة عن العراق والشام ، وهى عبارة عن ملخص تاريخى لمجريات الأمور فى تلك الفترة .

« Committe of IMPERIAL Defence »

Historical Summary of Events in Territories of the Ottoman Empire. Persia and Arabia . Afiecting the British Position in the Persian Gulf 1907 - 1928

PART II - The WAR (1914 - 1918)

Chapter (4) - the Ottoman Empire (1914 - 1918) .

ندرس فى البداية الاستعدادات العسكرية للحرب ، وكذلك السياسة التى سبقت الحرب وذلك بجمع المعلومات والتقارير ، خاصة لدى الطرف البريطانى عن طريق البعثات الدبلوماسية والقنصلية ودوائر الاستخبارات فى مختلف أنحاء الدولة العثمانية ، ومعرفة الرأى العام العربى فى الأقاليم العثمانية فى العراق والشام بما فيها لبنان والأردن وفلسطين .

نبدأ بعد ذلك بدراسة الأوضاع العسكرية ونتائج المعارك على الجبهتين العراق وفلسطين ، ثم الاحتلال البريطانى لهما ، بعد هزيمة الجيش العثمانى .

حاولنا أن تقتصر الدراسة من خلال وثائق لجنة الدفاع الامبريالى وليس من خلال الكتب المنشورة إلا بقدر ضيق حسب الحاجة ، لأن هذه الوثائق تكشف لنا معلومات جيدة إضافة إلى ما هو معروف سابقًا ، كما استعنا بالوثائق البريطانية الأخرى وخاصة من الخارجية البريطانية لكى تعطى مزيد من التفاصيل عن الأحداث أثناء الحرب العالمية الأولى .

الاستعدادات السياسية والعسكرية البريطانية والعثمانية في المنطقة منذ منتصف عام ١٩١٤ :

شهدت الأعوام ما قبل الحرب العالمية الأولى محاولات من بريطانيا التخلص من منافسة القوى التى نافستها فى المنطقة ، فقد وقعت بريطانيا الاتفاق الودى مع فرنسا عام ١٩٠٤ ، كما وقعت اتفاقية ١٩٠٧ مع روسيا لتقسيم النفوذ فى إيران ، ولم يبق أمام بريطانيا سوى عقبة كبيرة وهما ألمانيا والدولة العثمانية تشكلان قوتين متنافستين الأولى بثقلها المادى ومشروعاتها التوسعية فى العراق والشام ، والثانية بثقلها الروحى ، ولذلك لجأت بريطانيا إلى احتلال مشيخات شرق الجزيرة العربية وعقد معاهدات الحماية الاستعمارية ثم منعها عن التعاون أو إقامة علاقات مع أية قوى معادية لها وخاصة الدولة العثمانية التى حاولت بالفعل التأثير على هذه المشيخات تحت شعار « حركة الجهاد الدينى » ، مما جعل بريطانيا تقدم حمايتها العسكرية لمشيخات المنطقة الذين أصبحوا مهددين بابتلاع الدولة العثمانية لهم ، وكانت أكثر المشيخات تعرضًا لهذه الأخطار هما « عربستان » التى كان يحكمها الشيخ خزعل الكعبى ١٨٩٧ - ١٩٢٥ ، وعلى الرغم من أنه كان يمارس نفوذًا قويًا فى مشيخته إلا أنه كان يخشى من الدولة العثمانية ، وكذلك الكويت التى كان يحكمها الشيخ مبارك ١٨٩٦ - ١٩١٥ ، وكان خاضعًا للسيادة العثمانية من الناحية الشكلية(١) ، وإن كانت ظروف علاقته مع بريطانيا جعلت من

مشيخته تحت الحماية البريطانية وذلك بموجب الاتفاقية الأنجلو - عثمانية لعام ١٩١٣ ، فى حين لم تكن بريطانيا تخشى على مركز الشيوخ الخاضعين لحمايتها فى القسم الجنوبى من شرق الجزيرة العربية كقطر والبحرين وساحل عمان وعمان لبعدهم عن مركز تحركات العسكرية العثمانية فى البصرة .

لاحظ المراقبون العسكريون البريطانيون أن شيخا « عربستان » و«الكويت» يمكن أن يتعرضا أكثر من غيرهما للتهديد العثمانى الذى قد يؤدى إلى ضياع النفوذ البريطانى أو التشكيك فيه على الأقل . وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية لم تدخل الحرب العالمية الأولى إلا بعد مضى ثلاثة أشهر من قيامها فى أوربا وفى خلال تلك المدة لم تغفل حكومة الهند البريطانية فى اتخاذ الإجراءات الاحتياطية فى الخليج العربى فى حالة خوض العثمانيين الحرب بجانب دول « المحور » ضد الحلفاء وكان رأى « بيرسى كوكس » المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى ، هو ألا ترسل بريطانيا قوات عسكرية إلى المنطقة إلا بعد وقوع الحرب فعلاً وذلك حتى لا تظهر بريطانيا أمام السكان العرب المسلمين بمظهر المعتدى ، ولكن الحكومة البريطانية فى لندن لم تأخذ بهذا الرأى ، وقررت إرسال قوات عسكرية للتمركز فى شمال الخليج العربى(٣) وخاصة وأن بريطانيا كانت تخشى من حركة الجهاد الدينى التى أعلنها السلطان العثمانى بهدف إثارة المسلمين فى الهند والخليج العربى . وكان مما شجع بريطانيا على ذلك أن شيوخ العرب وهم خزعل الكعبى ومبارك الصباح وابن سعود بالإضافة إلى شيوخ العشائر العربية والإيرانية فى جنوب إيران وعربستان والعراق كانوا مهيائين للتعاون والتحالف مع بريطانيا ، وتمثل إمارة عربستان التى كان يحكمها خزعل ، أهمية خاصة لدى بريطانيا ، إذ أن أنابيب النفط التابعة للشركة البريطانية تمر بأرضها(٤)، كما أن أمارة الكويت تقع خلف خطوط الحملة البريطانية المتجهة لاحتلال

البصرة . و لم يجد البريطانيون عناء فى التعاون والتحالف مع كل من شيخ الكويت وعربستان ، فوعدوا الأول بالاستقلال التام عن الدولة العثمانية والثانى بالاستقلال عن إيران ، ولكن القضية كانت تتعلق بموقف الشعوب الإسلامية وميل الغالبية إلى الدولة العثمانية وقد نبه « اتشيسون »، وزير الشئون الخارجية لحكومة الهند وصاحب مجموعة المعاهدات الشهيرة ويتمتع بخبرة عن المنطقة ، نبه إلى أن معظم سكان الخليج من العرب متعلقون بالدولة العثمانية بحكم العاطفة الدينية وينطبق ذلك على سكان « عربستان » ، وقد أكدت الأحداث توقعات « اتشيسون » ، إذ أن معظم العشائر فى جنوب العراق لم تقبل التعاون مع قوات الاحتلال برغم أن بريطانيا وضعت خطة لكى يتولى زعماء العشائر إدارة دولة جديدة فى العراق تؤسس تحت إشرافها(٥) .

نجد أن بريطانيا كانت تهتم بمعرفة الأوضاع فى العراق والشام واتجاهات الرأى العام ، فقد بعث السفير البريطانى فى « أسطنبول » بنسخة من برقيته إلى بغداد فى يوم ١٩١٤/٩/٢٥ وسلمت فى اليوم التالى تحوى معلومات قدمها « مهدى بك » نائب « كربلاء » للسفير البريطانى جاء فيها :

« أخبرنى مهدى نائب كربلاء قبل مدة بأن الحكومة العثمانية أمرته باستخدام نفوذه على مجتهدى الشيعة فى العراق والقوقاز وإيران والهند ، للقيام ببث الدعاية للرابطة الإسلامية ، مع أنه فى الحقيقة لا يوافق عليها ، والوسيلة لهذا الغرض هى المكاتبات ، وقدم مهدى بك اقتراحات بأن يعارض دعايته هذه بخطابات عن طريق السفير تعارض الخطابات الأخرى ، وبما أنه لم يتقدم بهذا الرأى منذ المناسبة الأولى ، لم أتخذ إجراءات هنا حيث أننى لا أثق فيه ، وعليه يمكنك (يقصد وزير الخارجية البريطانية) إخطار نائب القنصل (البريطانى) فى «كربلاء» فيما إذا كان هؤلاء المجتهدون الشيعة استغلوا نفوذهم فى الدعاية ضدنا،

وما هو حقيقة موقفهم ، وعلى نائب القنصل البريطانى أن يستخدم ما لديه من تأثير عليهم بعناية وتحفظ لوقوفهم فى جانبنا »(٦) .

أصبحت بيروت فى هذه الفترة مركزًا هامًا من مراكز الوعى العربى ولكن لبنان والشام مليئة بالمشاكل عامة والطائفية خاصة ، وقد كانت بريطانيا مهتمة بجمع المعلومات عن الأقاليم العربية الخاضعة للحكم والسيطرة العثمانية ، ففى يوم ١٩١٤/٩/١٥ بعث القنصل العام لبريطانيا فى بيروت بصورة من التقرير الذى كتبه للسفير البريطانى فى أسطنبول وتسلمته الخارجية البريطانية فى لندن بتاريخ ١٩١٤/١٠/٧ ، ويرسم التقرير حالة من الاضطراب فى لبنان عقب إعلان الحرب العالمية الأولى ، فركود حالة التجارة عقب إعلان الحرب أثار القلق بين المسيحيين والأجانب ، واستعدادات الدولة العثمانية العسكرية وحشد جنودها ، استدعى استخدام العنف والقهر من جانب السلطات العسكرية مما قاد إلى خراب جزئى للبلاد إضافة إلى الحملات العنيفة ضد المصالح الفرنسية والروسية وبطريقة غير مباشرة المصالح البريطانية أيضًا ، وقد شاع الذعر فى لبنان نتيجة لتصرفات الحاكم العام العثمانى الطائشة ومرؤوسيه من الجندرمة والبوليس ضد السكان فى لبنان وكذلك السلطات اللبنانية ، ففى أول الأمر تركزت شكواهم فى الحماية المزعومة التى تعطيها حكومة لبنان للهاربين من العسكريين من المقاطعتين المتجاورتين ومن أصحاب الجمال والبغال الذين يخفونها لئلا تستخدمها القوات العثمانية(٧) .

جرت عدة محاولات من جانب الجندرمة العثمانية بقيادة ضباط من الجيش لعبور الحدود اللبنانية للقبض على الهاربين من العسكرية أو لأخذ حيوانات النقل ، ففى كل الحالات ما عدا واحدة نجح حرس الحدود اللبنانى عندما كان قويا فى سد الطريق أمامهم ، وقد هدد الحاكم العام العثمانى علنا بأنه سيرسل الجنود للقبض على الهاربين وعلى الحيوانات المطلوبة للحملة ، وقد توصل الحاكمان إلى

اتفاق والأمل معقود على أن لا تتجدد حوادث الحدود هـذه . كما شاع رعب حقيقى حوالى منتصف أغسطس نتيجة التقارير التى تواردت عن الحشد الكبير للجنود العثمانيين فى « حمص » و « طرابلس » ، وقد فسرت حسب الاعتقاد السائد على أنها تشير إلى احتلال جبل لبنان تكون نتيجته القضاء على الحكم الذاتى الذى يتمتع به « جبل لبنان » ، ومما يزيد فى التأكيد تصريحات ضد حاكم جبل لبنان التهديدية علنا(٨) .

يقول التقرير البريطانى بأن أخطر الظواهر فى جبل لبنان هى محاولة من الخارج تهدف إلى إضعاف العلاقات الودية بين « الدروز » و« بريطانيا » وإغرائهم لاتخاذ موقف إلى جانب ألمانيا ، وفى حالة إتخاذ الدولة العثمانية إجراءات عسكرية يسمح لهم بانقضاض على « المارونيين » و« الأرثوذكس » فى جبل لبنان ، ولحسن الحظ حسب قول القنصل البريطانى العام أنه سمع بتلك المؤامرة فى الوقت المناسب ، وبعث لبعض زعماء « الدروز » أصحاب النفوذ ونقل لهم ما لديه من معلومات ، ونتيجة لذلك فشلت الحركة فى مهدها بواسطة العمل السريع من جانب هؤلاء الزعماء ، ومن وقتها تواردت إلى القنصل التأكيدات عن إخلاص « الدروز » لبريطانيا التى كانت دائمًا تكتنفهم برعايتها وحمايتها ، ويبدو أن الحجة التى يقدمونها لهم للانضمام لجانب ألمانيا هى أن فرنسا حليفة لبريطانيا ستحتل لبنان وتفضل « المارونيين » عليهم إن خرجت منتصرة من الحرب وستتخلى بريطانيا عنهم حفاظًا للعلاقات بينها وبين حليفتها ، ولم يجد القنصل البريطانى صعوبة فى إقناع « الدروز » على حد قول السفير البريطانى فى إسطنبول ، وقد ظلت الحكومة البريطانية تحمى « الدروز » ضد « المارونيين » طيلة خمسين سنة مع العلم بأن علاقتها مع فرنسا لم تكن ودية إلا منذ وقت قريب، فإذا ما تدعمت هذه الصداقة بين الطرفين البريطانى - الفرنسى بالخروج

منتصرين من الحرب فسوف لا تكون هناك مشكلة بينهما فى هذا النزاع بين الطائفتين ، ويختم القنصل البريطانى تقريره بأنه نصح « الدروز » و« المارونيين » و« الأرثوذكس » التزام الهدوء وأن لا يتنازعوا فيما بينهم حتى لا يجد العثمانيون مبررًا للتدخل فى لبنان(٩) .

كتب الكولونيل كلايتون Clayton رئيس المخابرات البريطانية فى القاهرة فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٤ تقريرًا عن محادثته مع عزيز على المصرى يرى بأن الطريقة الوحيدة فى نظره لنجاح برنامج القومية العربية للتحرر من السيطرة العثمانية هو ثورة لها تنظيمها مسنودة بقوة قليلة نسبيًا لكنها معدة أحسن إعداد ويمكن الحصول على نواة هذه القوة من جيش العراق ، فقد غرست بذور عدم الولاء فى هذا الجيش منذ وقت طويل ويضم عددًا ضخمًا من الضباط وضباط الصف والأنفار ينتظرون كلمة واحدة للتخلى عن الحكومة العثمانية والانحياز له وبهؤلاء الرجال كنواة تكون قوة عسكرية من خمسة عشر ألف رجل يحتلون موقعًا مناسبًا يكون تقدم العثمانيين فيه بطيئًا وصعبًا وهذا هو المركز الذين تتجمع حوله قوات زعماء العرب ، ودور بريطانيا هو ضمان تجهيز المال والبنادق والذخيرة والمدفعية وكل المعدات المطلوبة لتسليح هذه النواة ، ويستنكر عزيز المصرى بقوة إرسال قوات بريطانية لأنها سوف تخلق انطباعًا بنية ضم الأراضى ، وباختصار فإن على بريطانيا تقديم معدات الحرب والعرب يكونون القوة المقاتلة وبهذه الطريقة يحدث حلف قوى بين بريطانيا والقوة العربية الجديدة لمصلحة الطرفين . ولكن الحكومة البريطانية لم تؤيد مشروع عزيز المصرى ، وقد بعث « شيتام » القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة ببرقية بتاريخ ١٩١٤/١١/١٣ إلى الخارجية البريطانية يقول فيها بأن رسالة « كتشنر » للشريف عبد الله بن الحسين أرسلت له ثم قال(١٠) :

بأن زعماء الحركة العربية ينظرون بعين الريبة نحو نيات بريطانيا لضم الأراضى العربية وعلى وجه أخص احتلال موانىء البحر الأحمر والتدخل فى التجارة العربية ، وأن عزيز المصرى عنصر هام فى هذا الصدد خاصة فى العراق وبين الضباط العرب فى الجيش العثمانى ولكنه يفتقر إلى المال لتنفيذ مشروعاته ورأيه هو أن يبدأ بثورة فى العراق معززة بقوة صغيرة ولكنها كاملة التجهيز تكون نواتها من جيش العراق حيث غرست بذور عدم الولاء للعثمانيين وبهذا يتكون مركز يتجمع حوله زعماء العرب ولابد من ضمان المال والأسلحة والمعدات الحربية الأخرى قبل القيام بأية خطوة نحو التنفيذ ويجب أن تكون هذه القوة حوالى أربعين ألفا أو خمسين ألفا وما كان من وزارة الخارجية البريطانية إلا أن أمرت بتنفيذ المشروع على أن يوكل إلى حكومة الهند إذ أقرت الأخيرة(١١) .

ازداد نفوذ ألمانيا فى الدولة العثمانية قبيل الحرب العالمية الأولى لدرجة كبيرة فبعد تردد قصير علق ثلاثى جماعة الاتحاد والترقى الآمال على برلين ودخل الحرب ضد الحلفاء وبنتيجة مغامرة زعماء الأتراك ، بلغت الأزمة السياسية داخل الدولة العثمانية نقطة حرجة فطرح سكان أغلب الأقاليم غير التركية وخاصة الأقاليم العربية مطالب تقرير المصير إلا أن دول الحلفاء وبالذات فرنسا وبريطانيا كانت تعتبر الدولة العثمانية المحتضرة كلها غنيمة استعمارية لها وتعتبر القوميين العرب حلفاء مؤقتين خاضعين لها(١٢) .

قيام الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية :

أرسلت بريطانيا قواتها العسكرية للمرابطة فى البحرين منذ شهر أكتوبر ١٩١٤ وتحولت تلك الجزيرة العربية إلى قاعدة كبيرة لبريطانيا وذلك قبل إعلان الدولة العثمانية الدخول إلى الحرب العالمية الأولى ، ومع بداية الحرب كتبت لجنة الدفاع الأمبريالى تقريرها بأنه فى هذا الجزء ليس هناك أى محاولة لمتابعة تفاصيل

العمليات العسكرية خلال سنوات الحرب فى الشرق الأوسط ، ولعل ذلك من الممكن أن نجد أنفسنا خارج إطار هذه الورقة ، ولكن هذه المحاولة ما هى إلا مخطط شامل ومتتالى بمتابعة الأحداث السياسية والعسكرية بحسب التعبير السياسى ، والتى كانت تعكس سياسة أعداء بريطانيا وحلفائها أو بريطانيا ذاتها، وخاصة ضد مصالح بريطانيا فى العراق والخليج العربى بطريقة مباشرة ومع هذه المحدودية فإن الموضوع لا يزال كبيرًا وفى اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر ١٩١٤ قطعت دول الحلفاء العلاقات مع الدولة العثمانية وفى نفس اليوم أرسلت جماعة الاتحاد والترقى خطابات تعميم إلى جميع قطاعاتها وأقسامها عن طريق فروعها فى جميع أقاليمها ، شارحا فى هذه الخطابات تقريرًا عن سبب المشاركة فى الحرب العالمية الأولى ، فقد تحركت تركيا بدافعين رئيسيين وهما ، أنها فكرت فى الدفاع عن نفسها ضد الهدف الروسى التقليدى وهو تحطيم الدولة العثمانية والاستيلاء على « أسطنبول » ومضايقها ، والدافع الرئيسى الثانى هو تبرئة وتبرير هدفنا القومى بتحقيق الشيء الأقرب إلى قلوبنا بالدفاع عن القومية التركية بغرض الحصول على حدود قومية لدولتينا والتى يجب أن تتضمن وتوحد كل فروع عرقنا من الجنس التركى - عند وضع هذه الدوافع قدمًا أصبح لا يوجد شك بأن جماعة الاتحاد والترقى قد شددت على المناداة الأقوى للدولة القومية للجنس التركى(١٤).

يتضح من ذلك أن جماعة الاتحاد والترقى دخلت الحرب لسببين رئيسيين وهما ، الأول التخوف من الاجتياح الروسى وأطماعها التقليدية والهدف الثانى مرتبط بالأول ، وهو عن طريق الحرب يمكن إرجاع الأقاليم التى احتلتها روسيا والتى يوجد فيها الجنس التركى وخاصة فى شرق وشمال الأناضول، الا وهى منطقة « الأزربيجان » و« القوقاز » ، وعن طريق المساعدة العسكرية الألمانية

يمكن تحقيق الهدف الأخير ، و لم يكن القوميون الأتراك يدركون أهمية الجنس العربى الذين قد يشكل خطر ويؤدى إلى إنسلاخ أقاليمها الجنوبية بمساعدة بريطانيا التى كانت تتربص بتلك الأقاليم العربية وخاصة العراق وفلسطين ، أما الشام فحليفتها فرنسا ، وهذا ما حدث فيما بعد .

« وصلت القوات البريطانية من الهند إلى « الفاو » فى بلاد الرافدين (ميسوبوتاميا) فى السادس من نوفمبر ١٩١٤ بعد أسبوع من بدء الحرب مع الدولة العثمانية ، وذلك من أجل حماية الإمدادات البترولية القادمة من حقول النفط فى عربستان ، وفى ٢٢ نوفمبر أستولت هذه القوات على البصرة ، وكان السلطان العثمانى قد أعلن فى ١٤ نوفمبر الجهاد على جميع قوات الحلفاء المعادية للدولة العثمانية ، وقد توقع الكثير من وراء هذه اللعبة ، ولكن النتائج جاءت مخيبة للآمال ، ومن الضرورى التحدث فى هذا الموضوع عند الكتابة عن أحداث الحرب فى المنطقة العربية(١٤) .

نلاحظ مما سبق ذكره عن « الجهاد والنتائج التى جاءت مخيبة للآمال » فإن فشل حركة الجهاد لم يرجع إلى الجهاد نفسه ، بقدر ما يرجع إلى الدور الكبير الذى لعبته بريطانيا قبل إعلان الحرب وذلك بتجميع حكام العرب فى الخليج العربى وجنوب العراق ضد الدولة العثمانية ، فى حين كان الشعب العربى فى الخليج والعراق مع الجهاد ضد قوات الاحتلال البريطانى ، ولكن مصداقية حركة الجهاد اصطدمت بتعاون الأتراك وتحالفهم مع الألمان الذين تجمعهم مع بريطانيا وفرنسا الديانة المسيحية ، وجميعهم يطمعون فى الأراضى والأقاليم الإسلامية ، إضافة إلى ذلك سياسة التتريك التى اتبعتها جماعة الاتحاد والترقى والتوجه نحو القومية التركية ومعاداة العرب .

فشل الهجوم التركى على مصر :

دعت السياسة العسكرية الألمانية ، للقيادة التركية إلى التقدم من خلال بلاد الشام نحو مصر وشمال أفريقيا ، وكان حسب تصور الألمان أن هذا المكان أو الجبهة يمكن للقوات التركية أن تستطيع تقديم أفضل الجهود وأحسن النتائج ضد القوات البريطانية ، أو على الأقل إعاقتهم فى قناة السويس وتوقيف أو تجميد القوات البريطانية على مقياس واسع ، ثم استعادة السيادة العثمانية فى شمال شرق أفريقيا ، ويمكن تحقيق ذلك كمكافأة لنجاح الجيش التركى فى مصر . ولكن الغزو فى هذا الاتجاه لم يجذب جميع القادة الأتراك ، حيث أنهم أدركوا الصعوبات الكبيرة التى سوف تواجه هذا الهجوم ، وأنهم لايريدون فتح جبهات جديدة للجيش التركى بعمليات مبكرة فى أفريقيا ، ولقد اعتقدوا بأن الأقاليم العربية من الدولة العثمانية لسوء الحظ عائق كبير ، وخاصة التوجه نحو إضافة الأقاليم العربية فى أفريقيا سوف تكون كارثة حقيقية ، ومهما أكد المختصون والذين يتحكمون فى السياسة العسكرية ، على أن العمليات الهجومية ضد مصر ، هى تشتيت للقوة العسكرية التركية ، ولكنهم أدركوا مع ذلك بأن السيطرة بالقوة فى هذا الاتجاه سوف يكون ذو ميزة لهم ولحلفائهم من الألمان ، والتجهيز للهجوم على قناة « السويس » ، كان قد بدأ قبل الاندلاع الحقيقى للحرب العالمية الأولى ، وتقدم جيش تركى من خمسة وعشرون ألفا من الرجال فى نهاية يناير ١٩١٥ ، ووصل القناة فى الثانى من فبراير ١٩١٥ ، ولكن بعد ثلاثة أيام قد صُدّ هذا الجيش التركى من قبل القوات البريطانية ، وكما سجل القائد جمال باشا ، فى مذاكراته أنه انسحب من أجل تفادى التدمير الكامل ، والحفاظ على هذه القوات من أجل استخدامهم حتى نهاية الحرب(١٥) .

نشطت الدوائر السياسية البريطانية بين العرب منذ إعلان الدولة العثمانية الحرب ، وكانت القاهرة إحدى تلك المراكز التى دارت فيها محادثات بريطانية

عربية وتساؤلات من جانب العرب وخاصة بين السوريين الذين استقروا أو نزحوا إلى مصر ، وكانت بلاد الشام أو سوريا الكبرى بما فيها لبنان تحت السيطرة العثمانية الكاملة عسكريًا وإداريًا إضافة إلى ما كانت تتمتع به لبنان بدرجة من الحكم الذاتى المحلى ، والمعروف أن العثمانين قبل إعلان الحرب قاموا بتحركات عسكرية فى سوريا ولبنان وفلسطين ولابد والحالة هذه أن يبدى قائد الجيش البريطانى فى مصر الجنرال سير « جون ماكسويل John Macswell » اهتمامًا بهذه المسألة ، لأنه إذا ما صدرت إليه الأوامر بالهجوم بجيشه على فلسطين وسوريا، لابد له أن يتعرف إلى شعور العرب هناك ودرجة ترحيبهم أو معاونتهم، وعليه فقد بعث ببرقية فى ١٩١٤/١١/٢٧ للورد « كتشنر » وزير الحربية الجديد والمندوب السامى الذى كان قبل أشهر معه فى القاهرة هذا فحوها(١٦) :

« هل لك أن تخبرنى بصفة شخصية عن هدف السياسة البريطانية النهائية فيما يختص بفلسطين وسوريا وعلاقتها بالحركة القومية العربية فالمسلمون يميلون بدرجة كبيرة لبريطانيا وكلهم ما عدا المارونيين ضد فرنسا ، وعليه فمن الضرورة بمكان أن نعرف الخط الذى نسير عليه لأن هناك الكثير مما تتناوله الألسنة حتى بين ضباط الجيش التركى ، ولكننى لا أود أن أصرح أو أقوم بعمل ما قد يفسر فيما بعد بأنه تنكر للوفاء بالعهد .

رد « كتنشر » على ذلك بعد يومين بقوله : « لا نستطيع أن نحدد فى الوقت الحاضر أى خط واضح ولكن إذا ما قدر لجنودنا الوصول إلى سوريا فالمأمول أن يلاقوا ترحيبًا حارًا من الأهالى ، وفى الوقت نفسه فعلى الأصدقاء امدادنا بمعلومات صحيحة عن تحركات الجيش التركى وقد علمت أن جمال باشا وزير البحرية السابق سيغادر أسطنبول فى طريقه إلى قيادة الجيش هناك للقيام بعمليات ضدك ، فإذا لم يكن حرسه كافيا فى مروره فى سوريا وفلسطين يحتمل القبض عليه وأخذه للساحل وهناك نلتقطه »(١٧) .

قبل وصول الجيش التركى إلى قناة السويس كان « ماكسويل » قد عرف المتاعب التى ستجرها فرنسا فى سوريا ، وعرف « كتشنر » أن الجيش العثمانى المحتشد فى سوريا وفلسطين تحت قائده الجديد جمال باشا سيكون هدفه غزو مصر ، ونلاحظ كان « كتشنر » يفكر ويأمل فى أن أصدقاء بريطانيا فى سوريا وفلسطين ربما ينجحون فى القبض على جمال باشا وتسليمه لهم فى الساحل لتلتقطه البحرية البريطانية ، وكيف أن « كتشنر » كان يبالغ إلى درجة كبيرة فى الترحيب والخدمات التى سيقدمها لهم أصدقاؤهم من السوريين وقد يرجع ذلك إلى موقف السوريين واللبنانيين المقيمين فى مصر حيث كانت لهم أجهزة إعلامية من الصحف والمجلات إضافة إلى من كانوا يعملون فى سلك الخدمة المدنية فى مصر والسودان تحت الإدارة البريطانية وأملهم أن يمتد الاحتلال البريطانى وإدارتها إلى سوريا ولبنان ولكن هل هؤلاء كان لهم تأثير فعال على السوريين وقادتهم المقيمين فى سوريا نفسها ، فقد أثبتت الأيام فيما بعد عكس ذلك(١٨) .

نقلت المخابرات العكسرية البريطانية فى المنطقة أنباء الحشود العثمانية فى سوريا وفلسطين ، ونقل لها قناصلها هناك النشاط العثمانى المتزايد على المستويات العسكرية والسياسية والدعائية وسط العرب هناك ، فلا بد والحالة هذه أن تبحث مختلف الاحتمالات فى حالة قيام الجيش العثمانى بغزو لمصر أو فى حالة حملة هجومية يقوم بها الجيش البريطانى من قواعده فى مصر ، وفى الحالة الثانية يجب أن تتعرف المخابرات على استعدادات العرب للترحيب بالجيش البريطانى أو الانحياز للأتراك ، وعليه فقد قدم مدير المخابرات البريطانى فى مصر بتاريخ ١٩١٥/١/٥ عن نواحى الموقف عسكريًا وسياسيا ، فالموقف العسكرى كما يبدو له آنذاك حسب البيانات التى تلقاها تشير على أن العثمانيين يبيتون النية لغزو مصر ، وهذا أمر يهم السلطات العسكرية التى لها خططها لمقاومته(١٩) ، أما فى حالة القيام بهجوم بريطانى على الجيش العثمانى فى سوريا فقد بين الطرق

المختلفة التى يمكن القيام بها ، وهذا أيضًا فى مناقشاته وتفصيلاتـه مـن اختصـاص الجهات العسكرية ، ولكن المعلومات التى تجمعت للمخابرات فى الشـهور القليلـة الماضية تشير إلى أن قسمًا كبيرًا من أهالى سوريا وفلسطين سوف يرحـب بـالجيش البريطانى المحتل ، وحتـى إذا مـا كـانت هنـاك مقاومـة مـا فإنهـا ستكون ضعيفـة والاحتمال أن يقدم السكان عونهـم ومساعدتهم ، وعلـى العكـس إذا مـا كـان الجيش المحتل فرنسيا أو روسيا فإن بعض الأوساط العربية هناك ستكون غير راضية، وإذا ما تم للجيش البريطانى النصر ، فالاحتلال يجب أن يكون دائمًا أو على الأقـل إلى نهاية الحـرب ، أمـا إذا كـان غـارة وقتيـة يعقبهـا انسحاب فسيتعرض الذيـن ساعدوا إلى انتقام الأتراك سيعاودون سيطرتهم واحتلالهم ، فهـذه المسائل جديـرة بالاهتمام إذا ما كان فى النية التحرك هجوميًا على سـوريًا وفلسـطين ، ويجب أن يكون هناك تفاهم مع حلفاء بريطانيا على السياسة التى يجـب اتباعهـا فـى سـوريا فيما بعد وقبل القيام بالعمليات العسكرية(٢٠) .

نجد أن السفير البريطانى فى أسطنبول كان قد بعث ببرقية إلى وزير خارجيته فى ١٩١٤/٩/٢٠ جاء فيها : « مع أننى ما زلـت لا أتخـوف كثـيرًا مـن احتمـال القيام بأية أعمال هجومية من جانب العثمانيين على الحدود المصرية ، إلا أنه ينبغى ملاحظة أن ثمة إجراءات معينـة قـد اتخذت مؤخـرًا ففـى : « درعـا » علـى خـط الحجاز تم حشد عربات السـكك الحـديد كمـا توجـد أعـداد مـن الإبـل فـى «معان» وهناك المزيد من ضابط الجيش التركى متنكرين فى زى الأعـراب جنـوب « غزة » وفى « العقبة » ويتردد أنه سيتـم قريبـًا نقل قطعات من « حمـص » إلى « دمشق » كما أرسل جزء من قطعات « الموصل » إلى « ديـر الـزور » ، وتفيـد التقـارير الـواردة مـن « دمشـق » و« القـدس » ، وأن الحكومـة العثمانيـة تبـذل المستحيل بهدف استمالة « الدروز » والبدو ، وهو نفس الهدف الـذى يسـعى إلى تحقيقه عملاء الألمان(٢١) .

يتابع السفير البريطانى قوله : « ولا يبدو من المحتمل أن يكون « للدروز » أى نفع ممكن سوى اتخاذهم موقفا غير معاد للأتراك بيد أنه من المحتمل حث قبائل البدو على القيام ببعض الهجمات المتفرقة على الحدود وذلك بدفع بعض المبالغ المالية لهم وإثارة مشاعرهم الدينية تحقيقًا لمكاسب شخصية ، وينكر رئيس الوزراء والوزراء بشدة وجود أية نيات عدوانية ضد مصر ، واعتقد أنهم مخلصون فى تأكيداتهم ، ولكنهم غالبًا ما يجهلون أوامر وزير الحربية ونياته وسوف ألفت نظرهم إلى هذه الحقائق »(٢٢) .

أرسل القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة إلى ويز خارجيته برقية فى ١٩١٤/٩/٢١ عن احتمال وقوع هجوم عثمانى على مصر بقوله : باستثناء ما يشاع عن تحركات القطعات من « حمص » و« الموصل » فإن المعلومات الواردة من الملحق العسكرى تعززها الأخبار التى تم تسلمها هنا ، وتستنتج إدارة المخابرات من جميع التقارير التى وصلت مؤخرًا أنه لم يكن هناك أى تراخ فى النشاط العسكرى فى سوريا وفلسطين ، وقد انحصر نشاط القوات فى مصر فى القيام بأعمال الدورية فى قناة السويس بسبب عبور القوات الهندية ، ومع ذلك فقد أبلغنى القائد العام أنه إذا استمر الأتراك فى استعداداتهم فإنه قد يفكر فى ضرورة وضع دوريات فى سيناء ودعم مواقعنا فى شبه الجزيرة وهو يعتقد أنه يجب تحذير الحكومة العثمانية من أننا قد نتخذ إجراءات تكفل حماية حدودنا(٢٣) .

وسيرصد العثمانيون فى الحال أى تقدم لقواتنا فى سيناء واعتقد أن وزير الحربية قد يعتبره هجومًا أو قد يصوره له مستشاره على أنه عمل استفزازى ولو كان الأمر كذلك يبدو أنه يتعين التفكير فى نوعية العمل العسكرى هنا(٢٤) .

بعث السفير البريطانى فى أسطنبول إلى وزير خارجيته فى لندن بتاريخ ١٩١٤/١٠/٦ برقية عن تقرير الملحق العسكرى جاء فيها : « التقيت أمس بوزير

الحربية فى مقابلة استغرقت وقتا طويلاً نوعا ما ، وقد أنكر أية نية لدى الأتراك للقيام بهجوم على مصر وأوضح أنه قد أجريت تعزيزات عادية لحامية عسكرية سورية مكونة من فيلق واحد ببعض القوات الأخرى ، وقد تمت تعبئة كاملة لهذا الفيلق أسوة بغيره من الفيالق فى الدولة العثمانية وتم تدريبه بعناية بمساعدة ضباط البعثة الألمانية كما حدث فى غيره ، كما تم تزويده بدواب النقل وغير ذلك على مستوى المعركة ، بيد أنه قال أنه يحتمل أن يصدر الأمر له أخيرًا بالتحرك فى أى اتجاه حتى إلى « أسطنبول » وذلك كله متوقف على الموقف السياسى الذى لا يعتبر نفسه مسؤولاً عنه بصفة شخصية ، وبرر تكديس الذخيرة فى « معان » و« نابلس » و« القدس » باعتبارها مواقع فى نطاق محيط التعبئة ، وأضاف بأنه لم يتم تحريك قوات فى اتجاه غزة باستثناء قوات الدرك ومن المؤكد أنه قد تم تقديم مقترحات لقبائل البدو كى يحشدوا مشاعر تعاطفهم باعتبارهم مؤيدين للدولة العثمانية فى جميع الاحتمالات ، وسخر من فكرة أن أفرادًا من الألمان يقومون بمغامرات طائشة ضد « القناة » أو أية منطقة أخرى . ومن ناحية أخرى فقد أقر باتخاذ الإجراءات الاحتياطية فى مواجهة بريطانيا(٢٥) .

أشار وزير الحربية العثمانى إلى وصول قوات هندية إلى مصر وتواجد أسطولنا فى المياه الإقليمية خارج المضايق مرة أخرى وإلى دخول جنودنا إلى شط العرب ، فشرحت له أن من السخف الاعتقاد بأن وصول القوات الهندية معناه اتخاذ موقف عدائى ضد تركيا ، أما عن تحركات الأسطول والسفن فإن ذلك كان بسبب ما قامت به تركيا من انتهاكات وأنه ليست لدى البريطانيين أية نية لشن هجوم على الدولة العثمانية ، وكان وزير الحربية بطبيعة الحال مسلمًا بحجج مفادها أن الدولة العثمانية قد التزمت بالحياد وأنه كان هناك العديد من الضباط والأفراد الألمان والسفن المعاونة فى الجيش العثمانى وأنهم كانوا خاضعين تمامًا

للإدارة العثمانية ، وبهذا دارت مناقشات بيننا فيما يشبه الحلقة ، ومع ذلك فقد قلت له أنه إذا ما تم حشد القوات تحت أى ظرف إلى الجنوب من « معان » من ناحية ، أو « القدس » و« بئر السبع » من ناحية أخرى فإنه لن يسعنا سوى أن ننظر إلى هذا الأمر ببالغ القلق . وأنني شخصيًا أرى أن وزير الحربية يعتبر روسيا دولة معادية ويجب الاحتراس منها بيد أنه لديه هو أيضًا أطماعًا فى الأقاليم العربية الأخرى ومصر ، وقد تكون هذه أكثر تعلقًا بالمستقبل ، إلا إذا وجدنا أنفسنا فى موقف صعب فى الحرب الدائرة حاليًا ونتخذ الآن الإجراءات الكفيلة بمواجهة مثل هذا الاحتمال وفى الوقت نفسه يجرى تمهيد الطريق بشكل غير مباشر لما يتعلق بالحاضر والمستقبل(٢٧) .

أرسل القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة برقية إلى وزير خارجيته فى لندن بتاريخ ١٩١٤/١٠/١٧ يقول فيها : « وصل إلى مصر مؤخرًا سوريان مسلمان محترمان لهما علاقات مع شرقى فلسطين بما فيه المناطق الواقعة بين « العقبة » و« معان » واتصلا بدائرة الاستخبارات واحدهما شيخ بدوى ذو نفوذ، وأنهما يؤكدان جميع المعلومات المتعلقة بالاستعدادات العسكرية فى سوريا وقد أبديا أن الاعتقاد السائد بين البدو بصورة عامة هو أن هجومًا قريبًا سيقع على مصر فى وقت قريب ، وكان الشيخ حاضرًا اجتماعًا للشيوخ عقده قبل ثلاثة أشهر عبد الرحمن باشا اليوسف الذى حثهم على تأييد الدولة العثمانية ، ولقد وافق البدو على ذلك ولكن الكثيرين منهم كانوا يخشون منهم إنزالاً من مصر ، ولم يكونوا متحمسين لحركة القيام بهجوم على مصر ، وقد ألمح الشيخ إلى أن حضورهم الاجتماع يمكن أن يقضى على ولائهم للدولة(٢٧) .

قيل له أن بريطانيا ليست فى حالة حرب مع الدولة العثمانية . وأنها لاتستطيع استخدام الوسائل المشار إليها ، ولكن كان من المرغوب فيه أن يعرف

السوريون والبدو والعرب حقائق الوضع وقد شرحت له ووعد الشيخ بإذاعة هذه المعلومات ، نظرًا لمحاولات الوكلاء الألمان والأتراك لإثارة المشاعر الدينية ضد بريطانيا ، قد يكون من المرغوب فيه إعطاء نوع من الإشارة إلى الشيوخ الحاكمين فى الجزيرة العربية ، أمثال ابن رشيد ، والإدريسى ، بشأن موقف الحكومة البريطانية فى حالة وقوع هجوم من جانب الدولة العثمانية ، وقد قيل لى أن العرب خائفون من أزمة تركية وقلقون تجاه نيات بريطانية ، ولذلك فإن مجرد الإعراب عن شيء من الصداقة نحوهم سيكون من شأنه مقاومة الضغط الذى يمارس عليهم ، إن نوعية الشعور السائد فى الجزيرة العربية ، سيكون له تأثير كبير على العرب فى مصر وأتباع السنوسى(٢٨) .

نلاحظ من تلك الرسائل والبرقيات ، بأن البعثات الرسمية والدبلوماسية والقناصل البريطانية ودوائر استخباراتها ، فى الدولة العثمانية كانت تعمل كخلية النحل ، لجمع المعلومات اللازمة وخاصة عن التحركات العسكرية لقطعات الجيش ، وخاصة تجاه الحدود المصرية والعراق والحجاز ، وتضع تصورات وتقدم تحليلات وترسلها إلى المركز فى لندن ، حيث يتم فى ضوئها وضع الاستعدادات والخطط اللازمة لتفادى أى مفاجئة غير متوقعة . وكما يتضح من رسائل ومعلومات البريطانيين ، أنه لم يكن هناك نية للهجوم على مصر عند القيادة التركية برغم التحركات والاستعدادات ، ولكن يبدوا أن السياسة العسكرية الألمانية مارست نوع من الضغط على القادة الأتراك بدفع قواتهم للهجوم على قناة السويس دون أن يتم إعداد سابق وقوات كافية وجمع المعلومات اللازمة عن الدفاعات البريطانية ولهذا كان الفشل والإخفاق .

الهجوم البريطانى فى العراق وفلسطين :

جاء فى تقرير لجنة الدفاع الأمبريالى عن الوضع فى العراق والشام بأنه لقد أصبحت « ميسوبتاميا Mesopotamia » (بلاد الرافدين العراق والشام) الآن

مسرحًا للحرب والتى زادت من المتطلبات والالتزامات المتزايدة والملحة من المصادر العسكرية العثمانية ، وكذلك حماية المصالح الألمانية التى أصبحت فى خطر أيضًا ، فى الوقت الذى كانت بغداد منطقة جذب قوية لقوات الحملة البريطانية فى « ميسوبتاميا » الجنوبية ، كما كانت تلك المدينة تتمتع بشهرة خاصة وهامة ومشهورة فى كافة أنحاء الشرق ومتصلة أيضًا بكل تلك الطموحات الألمانية المجسدة فى السكك الحديدية الخاصة « ببغداد » ، ولقد سيطرت هذه المدينة على كل الطرق الرئيسية من المنطقة العثمانية حتى غرب فارس ، وإذا ما نجحت القوات البريطانية فى احتلال بغداد وأصبحت تحت سيطرتها ، فسوف تكون ذات قيمة كبيرة وأهمية استراتيجية بعد نهاية الحرب عندما يأتى وقت السلام وإعادة رسم الحدود بوضوح ، ولهذا فإن احتلال بغداد سوف يكون له مميزات سياسة وعسكرية ذات قيمة مقدرة وكبيرة فيما بعد .

بدأ التقدم البريطانى الأول فى بغداد فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١٩١٥ ، وكانت المصالح العثمانية والألمانية معرضة للخطر ومن بينها السيطرة على الطرق الرئيسية فى غرب إيران ، ولكن وصول الإمدادات العسكرية للقوات العثمانية بعد النجاح الذى تحقق فى « الدردنيل » ، والتوجه إلى « ميسوبتاميا » والانتصار الصعب فى مدينة « كتسيتفون » فى ٢٥ نوفمبر ١٩١٥ والتوجه إلى بغداد ، أدى إلى الاندحار والتراجع والانسحاب إلى كوت العمارةKut- el- Amara، ولكن أظهر أن قوة الحملة كانت غير كافية للسيطرة على بغداد تحت ظروف غير عادية و لم تكن موجودة(٣٠) .

وكان القائد العام للقوات البريطانية المسلحة فى الهند قد بعث ببرقية فى ١٩١٥/١/١٩ إلى وزارة الحرب فى لندن يقول فيها : « بأنه وصلتنا معلومات

من البصرة تشير إلى قسم كبير من الفرقة (١٢) ربما يكون قد وصل إلى منطقة «العزيز» ، وأن قوة العدو (الدولة العثمانية أو الجيش العثمانى) قرب منطقة «الروطة» تبلغ حوالى ١٠,٠٠٠ مع عدة مدافع بما فيها مدفعان ألمانيان وأن البواخر تنقل مزيدًا من القوات من بغداد(٣١) .

أخبرنا الكابتن « شكسبير » الضابط والخبير البريطانى الذى لدى ابن سعود، أن الخطة العثمانية الأصلية هى كما يلى : ابن سعود كان يدافع عن «البصرة» ويقوم بهجوم خادع لعرقلة تقدم بريطانى ، أما ابن رشيد وقبائل نجد تتقدم نحو شبه جزيرة سيناء ومصر بالاتصال مع القبائل الغربية ، وشريف مكة و الإمام يحيى يدافعون عن اليمن والحجاز والأماكن المقدسة ، وقد أفسدت هذه الخطة العثمانية قرار ابن سعود وشريف مكة وقبائل نجد على البقاء مع بعضهم ، وانضمام الأخيرين إلى ابن سعود ضد ابن رشيد ، الذى لا يستطيع التقدم نحو مصر بعد مهاجمته بهذه الصورة(٣٢) .

بعث وزير المستعمرات البريطانى برقية إلى الموظف المسؤول عن إدارة حكومة قبرص فى الأول من يناير ١٩١٥ قال فيها أن المسيحيون المارونيون فى لبنان يزدون بالأسلحة من قبل الحكومة اليونانية لمقاومة الهجمات التركية(٣٣) ، وقد اقترح أن ترسل الأسلحة إلى قبرص ومنها تنقل إلى لبنان وسوريا على زوارق شراعية صغيرة ، اتصلوا بصورة سرية مع الوزير المفوض البريطانى فى « أثينا » لغرض تدبير التسهيلات الضرورية لمرور هذه الأسلحة عبر قبرص(٣٤) وعن الأوضاع فى اسطنبول أبرق الوزير المفوض البريطانى إلى وزير خارجيته فى ١٩١٥/١/٤ جاء فيها : « أنه يقول الوزير المفوض اليونانى فى اسطنبول أنه منذ

مغادرة أنور باشا ، أصبح طلعت باشا أقوى شخصية وأنه يدير وزارات الداخلية والمالية والحربية والبحرية ، ويسنده رئيس مجلس المبعوثان ، وأجرى مقابلة طويلة مع السفير الألماني تأكد خلالها اتفاق السياستين الألمانية والعثمانية(٣٥) ولكن الاستياء من الحزب الحاكم ومن الضباط الألمان في ازدياد ، وأن السفير الإيطالي نبه السفير الألماني بصورة جدية إلى احتمال ظهور الاضطرابات في اسطنبول وإلى مسؤولية ألمانيا عن الخطر الذى يهدد الأجانب(٣٦) .

يتضح من تلك الرسائل والبرقيات ، كيف كان البريطانيون يتحركون فى جميع الجبهات لمقاومة العثمانيين ولمعرفة مجريات الأمور داخل الدولة العثمانية وخاصة في اسطنبول ، وتسهيل تقديم المساعدات للمسيحيين المارونيين عن طريق اليونانيين عبر جزيرة « قبرص » التى كانت تحت الاحتلال البريطانى ، إضافة إلى اتصالات البريطانيين بشيوخ وزعماء القبائل فى شرق ووسط الجزيرة العربية ووقعوا اتفاقية الحماية مع ابن سعود عام ١٩١٥ ، كما نجحوا فى إفشال هجوم ابن سعود على القوات البريطانية فى العراق ، وإن كسب الأخير إلى جانب بريطانيا أدى إلى تجميد قوات ابن رشيد حليف العثمانيين من مقاومة ومحاربة قوات الاحتلال البريطانى فى البصرة ، وبعد ذلك جرت معركة كبيرة فى « كوت العمارة » بعد ما كان البريطانيون قد خسروها فى بداية الحرب ثم نجحوا بعدها وحول ذلك يقول تقرير لجنة الدفاع الامبريالى :

استمر حصار كوت العمارة من السابع من ديسمبر من عام ١٩١٥ حتى التاسع والعشرون من إبريل من عام ١٩١٦ ، عندما سيطرت القوات البريطانية على مجريات الأمور ، وبالنسبة للحكومة العثمانية أصبحت المنطقة مثل كرة الحرب لا يمكن تجاهلها أو حفظها ضمن الحدود الضيقة ، وبعد أن سقطت كوت العمارة ، كانت التقديرات البريطانية ناجحة وصحيحة فى حساباتها نحو الشرق ،

فى حين تزايدت الجهود التركية والألمانية الجادة من بغداد تجاه إيران ومنها إلى الهند، وأن تجمع القوات التركية شكلت عقبة كبيرة للجهود العسكرية البريطانية للسيطرة على بغداد ، وخاصة بعدما فشلت حملة القوات العسكرية للحلفاء فى منطقة " غاليبولى " والتى كانت تشكل تهديدًا فى قلب الدولة العثمانية ، وبذلك أصبحت منطقة " ميسوبتاميا " (الرافادين) هى أرض المعركة الحقيقية ، حيث كان التعارض بين المصالح الغربية وبين أهداف القوات العسكرية المتحاربة فى الميدان قد وصلت إلى وضع التصالح والتسوية ، والهدوء الذى يسبق العاصفة ، فقد أصبحت السيادة العثمانية فى العراق عرضة للخطر والزوال كما توقفت آمال الأتراك بالتوسع على حساب إيران ، كما تعرضت الطموحات الألمانية للانتكاسة وخاصة سيطرتهم التى كانت تعتمد على السكك الحديدية فى بغداد ، كما ضعفت فرصتهم لخلق صعوبات أو مشاكل لبريطانيا فى إيران والهند(٣٧) .

بدت بغداد آمنة بعد سقوط " كوت العمارة " فى نهاية إبريل ١٩١٦ ، وفى ١٦ / ٥/ ١٩١٦ أبرمت اتفاقية " سايكس - بيكو " بين بريطانيا وفرنسا مع روسيا كطرف مصالح . ولقد جسدت هذه الاتفاقية تسوية رغبات دول الحلفاء فى تقسيم الدولة العثمانية ، يجدر الإشارة هنا أنه لبريطانيا مطالب محددة لحماية مصالحها الكبيرة وذلك بإقامة حزام واسع من المنطقة ، يمتد من الخليج العربى والحدود الإيرانية إلى البحر المتوسط متضمنًا " البصرة " و" بغداد " . بينما كانت آمال الدولة العثمانية قوية فى استرجاع سيطرتها فى الأجزاء الجنوبية من "ميسوبتاميا" (الرافدين) وغرب إيران ، قام شريف مكة بثورته فى ٥ يونيو ١٩١٦ ضد الأتراك ، ففى البداية كانت الثورة العربية بقيادة الشريف حسين روحية وسياسية فى تأثيرها ، وبعد ذلك أصبحت ذات أهمية عسكرية كبيرة ، كما أن نتائجها السياسية الأخيرة بالغ الأهمية فى المنطقة الممتدة بين إيران ومصر ، وقد أثر ذلك على السياسة البريطانية حتى يومنا هذا(٣٨) .

انتهت فترة الراحة التى قضاها العثمانيون فى " ميسوبتاميا " بعد سقوط " كوت العمارة " فى إبريل ١٩١٦ ، وقد استفادوا منها من أجل الهجوم على إيران انتهى فى يناير ١٩١٧ ، وكانت التجهيزات والاستعدادات العسكرية البريطانية قد اكتملت ، وبدأ تقدم آخر تجاه بغداد فى اليوم الثانى من هذا الشهر ، وبدأت معركة كوت العمارة فى التاسع من يناير ، بعد قتال مطول تمت السيطرة على المدينة فى الثالث والعشرين من فبراير ، وسقطت بغداد فى الحادى عشر من مارس(٣٩)

أصبحت القوات البريطانية مع نهاية مايو ١٩١٧ تحارب الجيش العثمانى على جبهة " ميسوبتاميا " والجبهة الفلسطينية ، وكانت الأهداف العسكرية العثمانية بتوجيه حملة إلى مصر قد انتهت منذ الإخفاق العسكرى فى رومانيا فى أغسطس ١٩١٦ ، وقام البريطانيون مع نهاية عام ١٩١٦ يفكرون فى احتلال شمال فلسطين ، وبعد الهزائم التى لحقت بالقوات البريطانية فى غزة فى شهر مارس وإبريل من عام ١٩١٧ ، وبعد أن تم تعيين الجنرال اللنبى قائدًا عامًا لقوات الحملة على فلسطين فى يونيو حدث تغير كبير فى الجبهة البريطانية حيث كانت هناك استعدادات دفاعية بريطانية كبرى انقلبت إلى إعداد هجوم كبير ضد الجيش العثمانى ، وأصبحت هذه الجبهة تمثل لتركيا جبهة خطيرة جدًا ، وذات أقصى إمكانيات ممكنة . ومع صيف ١٩١٧ بدأ تصميم السياسة العسكرية التركية فى استعادة مواقعها التى خسرتها فى بغداد وفلسطين ، وكان لدى " اينفر " باشا طموح لاسترجاع بغداد ، لقد كان هذا المشروع يمثل بحق طموحاته الشخصية وكذلك جميع طموحات القيادة التركية ، والتى تتمثل فى إيجاد طريق إلى الخليج العربى وتتفق ذلك مع الأمنيات الألمانية فى غرب إيران ، وفى حفظ المخطط العسكرى للدخول إلى الخليج العربى . وبدون معارضة من القادة العسكريون

الذين يرون عاصفة على وشك الانفجار فى فلسطين ، فى حين كان هناك قادة آخرون يرون الاهتمام بجبهة " القوقاز " ، ولهذا قرر " اينفر " باشا القيام بهجوم على بغداد ، وكانت الجبهة الفلسطينية لقوات الاحتلال البريطانى قوية بالدرجة الكافية واللازمة للدفاع عنها ، ويمكن أن يترك العثمانيون قوات الروس فى القوقاز " فى الوقت الحالى للتأثيرات المربكة تعمل عليهم وتؤثر فيهم ، للإضرار بالجبهات الأخرى(٤٠) .

بدأت الاستعدادات لتجميع مجموعات من الجيوش العثمانية لقذفها ضد بغداد ، وقد عين " الجنرال فون فالكينهاين General Von Falkenhayn " بواسطة الألمان لقيادة هذه الحملة . بدأ تجميع جيش " يولدريم " لإرساله إلى بغداد ، وعندما درس الجنرال " فون فالكينهاين " الموقف العسكرى على الجبهتين وجد أن التهديد من فلسطين مزعج ويشكل خطر حقيقى ، قرر أن لا يتم الهجوم على الجبهة العراقية نحو بغداد حتى يتم دحر القوات البريطانية فى فلسطين وجعلهم ينسحبون إلى قناة السويس ، ولقد بحث كيفية تحقيق ذلك ووضع الخطط العسكرية لها ، وفى بداية سبتمبر تحول " اينفر باشا " إلى فكرة نون فالكينهاين " ووجهة نظره بضرورة الهجوم على فلسطين قبل محاولة الاستيلاء على بغداد ، ولكن " فون فالكينهاين " لم يعطى له فرصة لتنفيذ خططه ، وبدأ تقدم الجيش البريطانى فى نهاية اكتوبر ، وفى ديسمبر دخل الجنرال " اللبنى " وقام باحتلال القدس ، وخلال صيف وخريف عام ١٩١٧ ، تقدم الجيش البريطانى فى " ميسوبتاميا " (الرافدين) ناحية الشمال والغرب من بغداد ، وسيطر على الوضع بدرجة أقوى مما كان من قبل . والغزو والاحتلال البريطانى السريع من جنوب فلسطين حتى القدس ، دمر الخطط العسكرية التركية - الألمانية ، لافى جبهة فلسطين و" ميسوبتاميا " بل دمر أيضًا جميع آمال الأتراك والألمان التى تركزت فى

استعادة بغداد ، وبدلاً من أن تكسب الجيوش التركية الأراضى التى فقدتها أصبحت تعمل من أجل إيجاد دفاعات وتحصينات قوية لحماية تواجدها فى حين بدأت ألمانيا تعمل فى إيجاد طريق جديد من أجل الوصول إلى الشرق من البحر الأسود والقوقاز(٤١) .

أصبحت نهاية مشاركة الأتراك فى الحرب العالمية الأولى واضحة بعد معركة " مجدو Megiddo " فى فلسطين والتى انتهت بتاريخ ٢٥ سبتمبر بتدمير الجيش العثمانى ، ومع بداية أكتوبر كانت دمشق فى أيدى العرب والبريطانيين ، كما وقعت بلغاريا اتفاقية " اينتينت Entente " فى الثلاثين من سبتمبر ، وبالتالى كشفت اسطنبول والجناح التركى فى أوربا ، أما فى سوريا فقد قامت القوات البريطانية باحتلال مدينة " حلب " وقطعت خطوط السكك الحديدية التركية مع ميسوبتاميا (الرافدين) فى الثامن والعشرين من أكتوبر ، وفى العراق استمر تقدم القوات البريطانية حتى وصلت إلى مدينة " الموصل " ، ودارت معركة فى منطقة « شرجات Shargat » فى الثالث والعشرين من أكتوبر ، واستسلام الجيش التركى فى « تيجريس Tigris » فى الثلاثين من أكتوبر ، وبذلك خسرت الدولة العثمانية الحرب بالفعل كما خسرت جميع أقاليمها العربية ، أما بالنسبة لسكك حديد بغداد فإنها كانت تمثل حلم طريق الألمان فى الوصول إلى الخليج العربى ، وكان هذا هو هدف المجهود والسياسة الألمانية على مدار عشرين عامًا تقريبًا ، ولم يتحقق لهم شيئًا إلا كلمات انتشرت عن هذا الموضوع(٤٢) .

عندما رأى الألمان بأن الجيش البريطانى فى العراق قد جعل من بغداد هدفًا له ، فأصبحت الحاجة لمنع الاحتلال البريطانى للمنطقة ، والتى من خلالها يكون الممر إلى الخليج العربى من أهم متطلبات السياسة الألمانية ، وكلما كان احتمال الحصول على النصر الألمانى فى أوروبا بعيد المنال ، كلما أصبح الأمر مقلقًا

بالنسبة لاسترجاع بغداد ، وإذا انتهت الحرب بفرض السلام ولو لفترة قصيرة ، فقد كان واضحًا أن مصير الممر إلى الخليج العربى يجب أن يعود إلى الموقف العسكرى الذى كان موجود فى العراق قبل توقف القتال ، وإذا وقعت بغداد عندئذ فى أيدى العثمانيين ، وتحدد الاحتلال البريطانى فى منطقة البصرة ، ربما يمكن تأمين المنفذ إلى الممر المائى فى الخليج العربى فى هذه الحالة ، وكان على النقيض من ذلك هو استيلاء بريطانيا على بغداد وتقدموا باحتلالهم تجاه الشمال فأن الأمل فى الممر نحو الخليج العربى سوف يفقد إلى الأبد ، وأن استرجاع بغداد بعدما احتلتها القوات البريطانية يصبح أهم ما يشغل الألمان ، لذا كانت محاولة سيطرة « اينفر » باشا على المدينة فى واقع الأمر سيطرة مرسلة إليه عن طريق دفع الألمان لهم بالتمويل المالى له ، وبهذه الطريقة كان للدفاع عن السكك الحديدية ومستقبل تأثيرها عميقًا فى مسار الحرب العالمية الأولى فى الدولة العثمانية ، ومن هنا يجب القول أن الحملة البريطانية من الخليج العربى لم تحدد فقط مصير الممر الألمانى إلى الشرق ، ولكن أيضًا حدد من المجهود العسكرى التركى من فلسطين وتجاه " القوقاز " ووسط آسيا(٤٣) .

الخلاصة :

يتضح من دراستنا السابقة من خلال الملخص التاريخى للجنة الدفاع الأمبريالى عن منطقة العراق والشام ما يلى :

١ - أهمية السكك الحديدية لكل من ألمانيا وبريطانيا والدولة العثمانية .

٢ - أهمية الممر المائى فى الخليج العربى وخاصة لألمانيا ، التى بذلت سياستها للوصول إليه أكثر من عشرين عامًا . أما بالنسبة لبريطانيا فلا تقل أهميتها وإذا ما عرفنا أنها عن طريق تجمع قواتها فى البحرين ، استطاعت إنزال

قواتها فى شط العرب واحتلال البصرة التى تجاور جزيرة عبادان حيث تتجمع فيه أنابيب النفط البريطانى من عربستان ، والبصرة ضرورية لحماية تلك المصالح النفطية البريطانية .

٣ - أهمية بغداد لكل من بريطانيا وألمانيا نظرًا لموقعها القريب من إيران ومن الخليج العربى وملتقى الطرق والسكك الحديدية وأهم مدن الشرق فى تلك الفترة ، ولهذا اتجهت السياسة البريطانية والألمانية فى الاحتفاظ على بغداد .

٤ - توجه السياسة العثمانية إلى القوقاز وإيران أكثر من توجهها نحو الأقاليم العربية فى بداية الحرب . لإيجاد دولة قومية تركية .

٥ - توجه السياسة الألمانية إلى احتلال قناة السويس منذ بداية الحرب العالمية نظرًا لأهميتها وهذا ما ثبت فيما بعد .

٦ - توجه السياسة البريطانية إلى احتلال البصرة ثم بغداد من جهة الشرق ، والقدس ودمشق من جهة الغرب ، أى فتح جبهتين من الخليج العربى ومصر.

٧ - بعد وقوع بغداد وفلسطين تحت الاحتلال البريطانى ، كان الهدف الألمانى هو ضرب البريطانيين فى فلسطين وجعلهم ينسحبون إلى قناة السويس ، ثم استرجاع بغداد ، ولكن بعد تعزيز البريطانيين لمواقعهم واستسلام الألمان بالأمر الواقع فى حين أصبح الأتراك يحصنون مواقعهم فى الأناضول .

٨ - عدم اعتماد البريطانيين على المقاتلين العسكريين من العرب وخاصة من ضباط الجيش العراقى العثمانى ، ورفضهم تكوين جيش عربى رسمى أو تدريبهم وتجهيزهم بالأسلحة الثقيلة ، خوفًا من تزايد شأنهم وبالتالى صعوبة بقاء الاحتلال البريطانى للمنطقة ، ولهذا كان الاعتماد على القوات البريطانية والهندية إلى جانب بعض الجنود العرب ضمن الجيش البريطانى .

الهوامش

(١) د. جمال زكريا قاسم - دراسة لتاريخ الإمـارات العربيـة ١٩١٤ - ١٩٤٥ - دار الفكـر العربى - القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص٣ .

(٢) د. جمال زكريا قاسم - نفس المرجع ص٣ .

(٣) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٩١ - ص٢١٣ .

(٤) د. جمال زكريا قاسم - المرجع السابق ، ص٣ .

(٥) د. صلاح العقاد - المرجع السابق ، ص٢١٤ .

(6) F.O. 371/2104

مقابلة بين السفير البريطانى فى‌اسطنبول ومهدى‌بك نائب كربلاء-يوم ٢٥ سبتمبر١٩١٤.

(7) F.O. 371/2143. . تقرير من القنصلية البريطانية فى بيروت فى ١٥ ستمبر ١٩١٤

(8) F.O. 371/2143/ Ibid

(9) F.O. 371/2143/ Ibid .

(10) F.O. 371/214

برقية بعث بهـا مستر شيتام القـائم بأعمـال المعتمـد البريطـانى فـى القـاهرة إلى الخارجية البريطانية يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٤ .

(11) F.O. 371/2143/ Ibid .

(١٢) أليكس فاسيليف - تـاريخ العربيـة السـعودية - شـركة المطبوعـات للتوزيـع والنشـر - بيروت ١٩٩٥ ، ص٣٥ .

(13) Committee of Imperial Defence, this Document is the Proparty of his Britanic Majesty's Government - Printed for the Committee of Imperial Defence - October 1928 - Confidential -P.G.13 - Historical Summary of Events in Territories of the Ottoman Empire - Arabia - Afiecting the British Position in the Arabian Gulf. 1907 1928 - No: 18211 - Chapter (4) the Ottoman Empire P. 12

(14) Committee of Imperial Defence - Ibid. P. 12

(15) Committee of Imperial Defence - Ibid. P. 12 .

(16) F.O.371/2139

رسالة من قائد الجيش البريطانى فى مصر سيرجون ماكسويل John Maxsweel إلى وزير الحربية البريطانية « كتشنر » فى لندن بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ .

(17) F. O. 371/2139 - Ibid .

(18) F. O. 371/2139 - Ibid .

(19) F. O. 371/2480.

تقرير من مدير المخابرات البريطانى فى مصر يوم ٥ يناير ١٩١٥ عن نواحى الموقف عسكريًا وسياسيًا .

(20) F. O. 371/480 - Ibid .

(21) F. O. 371/1971 - (51242) -

رقم ٨١١ - برقية من السير ل . مالبت السفير البريطانى فى اسطنبول إلى السير إدوارد غرى - وزير الخارجية البريطانية - لندن ، بتاريخ ٢٠ سبتمبر ١٩١٤ ، يقول فيها أنه لا يتخوف كثيرًا من هجوم عثمانى على الحدود المصرية .

(22) F. O. 371/1971 - (51242) Ibid

(23) F. O. 371/ 1971 -

رقم ١٦٨ - برقية من المستر تشيثام - القائم - بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة إلى السير إدوارد غرى - وزير الخارجية البريطانية ، بتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩١٤ ، حول احتمالات هجوم تركى على مصر.

(24) F. O. 371/1971 - Ibid .

(25) (F.O.371/1671 - (56616) -

رقم ٦٣٨ - برقية من السير ل . تاليت السفير البريطانى فى اسطنبول إلى السير إدوارد غرى وزير الخارجية ، بتاريخ ٦ أكتوبر ١٩١٤ . تتضمن معلومات من الملحق العسكرى عن مقابلة له مع وزير الحربية العثمانى أنكر خلالها أية نية لدى الأتراك للهجوم على مصر.

(26) F. O. 371/1971 - (56616) Ibid

(27) F.O. 371/2140 - (60661)

سرى - رقم ٢٠٢ - من المستر نشيثام القائم بأعمال المعتمد البريطانى فى القاهرة إلى السير إدوارد غرى - وزير الخارجية ، بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩١٤ ، حول وصول شخصيتين سوريتين إلى القاهررة واتصالهما بدائرة الاستخبارات وتزويدها إياها بمعلومات عن الوضع فى المنطقة .

(28) F. O. 371/2140 - (60661) Ibid

(29) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P. 14.

(30) Committee of Imperial Defence - OP Cit. P 14.

(31) F.O. 371/2479 - (11837)

سرى - رقم S. 13161.22 برقية من القائد العام للقوات البريطانية المسلحة فى الهند إلى وزارة الحرب البريطانية فى لندن - بتاريخ ١٩ يناير ١٩١٥ .

(32) F. O. 371/2479 - (11837).

(33) F.O. 371/2479 - (1820)

برقية من وزير المستعمرات البريطانية إلى الموظف المسئول عن إدراة حكومة قبرص - بتاريخ الأول من يناير ١٩١٥ ، حول تزويد المارونيين فى لبنان بالأسلحة من قبل الحكومة اليونانية يطلب تسهيل مرورها عبر قبرص .

(34) F. O. 371/2479 - (1820) Ibid

(35) F.O.371/2479 - (1303)

سرى - برقية من السير ف . اليوت الوزير المفوض البريطانى فى أثينا - إلى السير إدوارد غرى - وزير الخارجية البريطانية - بتاريخ ٤ يناير ١٩١٥ ، حول الوضع السائد فى الدولة العثمانية منذ مغادرة أنور باشا والاستياء من الحزب الحاكم والألمان فى أسطنبول .

(36) F. O. 371/2479 - (1303) Ibid .

(37) Committee of Imperial Defence - OP Cit. P. 14.

(38) Committee of Imperial Defence - OP.Cit. P. 15.

(39) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P. 15.

(40) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P 16.

(41) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P 19.

(42) Committee of Imperial Defence - OP. Cit. P 19.